قصيدة (لا تعذليه) لابن زريق البغدادي استحضار الحبيب الغائب ومكاشفته

أ.د. علي حداد

جامعة بغداد/ مركز إحياء التراث العلمي العربي

الملخص :

يقوم هذا البحث على مسعى لتطبيق آلية قرائية مقترحة نشتغل عليها منذ زمن طويل ، تتكشف أبعادها في تداول النص وقراءته لمرات عدة وتأمله ، والإصغاء لتفوهاته ، وصولاً إلى وضع اليد على (مهيمنة) متبناة سوف تقدم كشوفاتها عبر مستويات النص : المعجمية والتركيبية والإيقاعية ، وصولاً الى ما تنتهي القراءة عنده من تبيان لـ(منجز النص الدلالي) الذي يصبح رصداً لتلك المخبوءات التي كشفت القراءة أستارها.

لقد سعينا في هذه القراءة إلى تطبيق تلك الآلية على نص مشهود له في الذكر والتداول،هو قصيدة (لاتعذليه) لابن زريق البغدادي ،هذا النص الذي يخبر عن تجربة إنسانية لشاعر وجد نفسه . في برزخ التحول . بين مرحلتين : (ماضية) يستعيد وقائع ما كابده فيها ، و(حاضرة) يعيش راهن تفجعاته في خلالها تفوهات شعرية آسية. ومن هنا فقد تزاحمت أدائية النص . في مستوياته كلها . للتعبير عن المرحلتين ، وتجسيد وقائع كل منهما .

وإذ اختلط اسم هذه الشخصية بغيره فقد بدا غير مستغرب أن تتداخل تفصيلات حياتها بسواها كذلك ، وأن يذهب كثير ممن تناولوها إلى الظن والتخمين ، وتقديم بعض الوقائع والأخبار التي سيقف منها آخرون موقف الإنكار أو التشكيك .

ووقوفاً عند الخلاصة الأخيرة التي تبنتها قراءتنا فإن هذا النص يحدثنا عن شخص كان يعيش وحدته غريباً مباعداً عن حبيبته التي رحل عنها ساعياً في طلب الرزق ، الذي لم يكتب له أن يناله ، وهاهو يبوء بخيبته ،حتى لم يعد له سوى أن ينزوي وحيداً ، مستعيداً ما كان له من الذكريات ، محاولاً أن يخبرنا عن اسمه ، وبعض تفصيلات حياته، وطبيعة انشغالاته الشعرية .

*النص:

1- لا تَعذَليـــه فَـــإنَّ العَـــذلَ يُولِعُـــهُ ... قَـــد قَلـــتِ حَقـــاً وَلَكِـــن لَـــيسَ يَســـمَعُهُ

2- جـــاوَزتِ فِـــي لومـــه حَـــداً أَضَـــرَّبِهِ ... مِـــن حَيـــثَ قَـــدرتِ أَنَّ اللـــوم يَنفَعُـــهُ

3- فَاســـتَعمِلِي الرِفـــق فِـــي تَأنِيبِـــهِ بَـــدَلاً ... عـــن عنفـــه فَهُـــوَ مُضـــنى القَلـــبِ مُوجعُـــه

4- قَـــد كـــانَ مُضـــطَلَعاً بِالخَطـــبِ يَحمِلُـــهُ ... فَضُـــيَّقَت بِخُطُـــوبِ الـــدهرِ أَضـــلُعُهُ

5- يَكفِيـــهِ مِـــن لَوعَـــةِ التَشـــتِيتِ أَنَّ لَـــهُ ... مِـــنَ النَـــوى كُـــلَّ يَـــومٍ مـــا يُروعُـــهُ

6- مـــا آبَ مِـــن سَـــفَرٍ إِلّا وَأَزعَجَـــهُ ... رَأيُ إِلـــى سَـــفَرٍ ...بِالعَـــزمِ يَجمَعُـــهُ

7- كَأَنَّمـــا هُـــوَ فِـــي حِـــلٍّ وَمُرتحـــلٍ ... مُـــوَكَّلٍ ... بِقَـــضاءِ اللَـــهِ يَذرَعُـــهُ

8- إِذا الزَمـــاع أَراهُ فـــي الرَحِيـــلِ غِنـــىً ... وَلَـــو إِلـــى السَـــندّ أَضـــحى وَهُـــوَ يُزمَعُـــهُ

9- تـــأبى المطـــامعُ إلا أن تُجَشّـــمه ... للـــرزق كـــداً ...وكـــم ممـــن يودعُـــه

10- وَمـــا مُجاهَـــدَةُ الإِنســـانِ تَوصِـــلُهُ رزقَـــاً ... وَلا دَعَـــةُ الإِنســـانِ ... تَقطَعُـــهُ

11- قَـــد وَزَّعَ اللَـــهُ بَـــينَ الخَلـــقِ رزقَهُـــمُ ... لَـــم يَخلـــُق اللَـــهُ مِـــن خَلـــقٍ يُضَيِّعُـــهُ

12- لَكِـــنَّهُم كُلِّفُـــوا حِرصـــاً فلَســـتَ تَـــرى ... مُســـتَرزِقاً وَســـوى الغايـــاتِ تُقنُعُـــهُ

13- وَالسعي فـي الـرِزقِ وَالأَرزاقِ قَد قُسِمَت ... بَغِـــيُ أَلّا إِنَّ بَغـــيَ المَـــرءِ يَصـــرَعُهُ

14- وَالـدهرُ يُعطِـي الفَتـى مِـن حَيـثُ يَمنَعُـه ... إِرثـــاً وَيَمنَعُـــهُ مِـــن حَيـــثِ يُطمِعُـــهُ

15- اِســتَودِعُ اللَـــهَ فِـــي بَغـــدادَ لِـــي قَمَـــراً ... بِـــالكَرخِ مِـــن فَلَـــكِ الأَزرارَ مَطلَعُـــهُ

16- وَدَّعتُـــهُ وَبـــوُدّي لَـــو يُـــوَدِّعُنِي ... صَفـــوَ الحَـــياةِ وَأَنّـــي لا أَودعُـــهُ

17- وكـــم تشفـــع أنـــي لا أفارقـــه ... وللضـــرورات حـــال لا تشفعـــه

18- وَكَـم تَشَبَّثَ بـي يَـومَ الرَحيـلِ ضُـحَىً ... وَأَدمُعِـــي مُستَهِـــلّاتٍ ...وَأَدمُعُـــهُ

19- لا أَكُـذبُ اللَـهَ ثـوبُ الصَـبرِ مُنخَـرقٌ ... عَـــنّي بِفـــرُقَتِهِ ... لَكِـــن أَرَقِّعُـــهُ

20- إِنّـــي أَوَسِّـــعُ عُـــذري فِـــي جَنايَتِـــهِ ... بِالـــبينِ عِنـــهُ وَقـــلبي لا يُوَسِّعُـــهُ

21- رُزِقـــتُ مُلكـــاً فَلَـــم أَحسِـــن سِياسَـــتَه ... وَكُـــلُّ مَـــن لا يُسُـــوسُ المُلـــكَ يَخلَعُـــهُ

22- وَمَـن غَـدا لابِسـاً ثَـوبَ النَعِـيم بِـلا ... شُكـــرٍ عَلَيـــهِ ...فَـــإِنَّ اللَـــهَ يَنزَعُـــهُ

23- اِعتَضـتُ مِـن وَجـهِ خِلّـي بَعـدَ فُرقَتِـهِ ... كَأســـاً ... أَجَـــرَّعُ مِنهـــا مـــا أَجَرَّعُـــهُ

24- كَـم قائِـلٍ لِـي : ذُنـب البَـينَ؟ قُلـتُ لَـهُ: ... الـــذَنبُ وَاللَـــهِ ذَنبـــي ..لَســـتُ أَدفَعُـــهُ

25- هـــلا أَقمـــتَ فَكـــانَ الرُشـــدُ أَجمَعُـــهُ ... لَـــو أَنَّنِـــي يَـــومَ بـــانَ الرُشـــدُ اتبَعُـــهُ

26- إنّـــي لَأَقطَـــعُ أيّـــامِي وَأنفقُهـــا بِحَســـرَةٍ مِنـــهُ فِـــي قَلبِـــي تُقَطِّعُـــهُ
27- بِمَـــن إذا هَجَـــعَ النُـــوّامُ بِـــتُّ لَـــهُ بِلَوعَـــةٍ مِنـــهُ لَيلـــى لَســـتُ أَهجَعُـــهُ
28- لا يَطمَـــئِنُّ لِجَنبـــي مَضـــجَعُ وَكَـــذا لا يَطمَـــئِنُّ لَـــهُ مُـــذ بِنـــتُ مَضـــجَعُهُ
29- مـــا كُنـــتُ أَحسَـــبُ أَنَّ الـــدهرَ يَفجَعُنِـــي بِـــهِ ...وَلا أَنَّ بِـــي الأَيّـــامَ تَفجعُـــهُ
30- حَتّـــى جَـــرى الـــدهر فِيمـــا بَينَنـــا بِيَـــدٍ عَســـراءَ تَمنَعُنِـــي حَظّـــي وَتَمنَعُـــهُ
31- قَـد كُنـتُ مِـن رَيـبِ دهـرِي جازِعـاً فَرِقـاً فَلَـــم أَوقَّ الَّـــذي قَـــد كُنـــتُ أَجزَعُـــهُ
32- بِاللَـهِ يـا مَنـزِلَ العَـيشِ الَّـذي دَرَسـت آثـــارُهُ وَعَفَـــت مُـــذ بِنـــتُ أَربُعُـــهُ
33- هَـــل الزَمـــانُ مَعِيـــدُ فِيـــكَ لَـــذَّتُنا أَم اللَيـــالِي الَّتـــي أَمضَـــتهُ تُرجِعُـــهُ
34- فِـــي ذِمَّـــةِ اللَـــهِ مِـــن أَصـــبَحَت مَنزِلَـــهُ وَجـــادَ غَيـــثٌ عَلـــى مَغنـــاكَ يُمرِعُـــهُ
35- مَـــن عِنـــدَهُ لِـــي عَهـــدُ لا يُضـــيّعُهُ كَمـــا لَـــهُ عَهـــدُ صِـــدقٍ ...لا أُضَـــيّعُهُ
36- وَمَـــن يُصَـــدِّعُ قَلبـــي ذِكـــرَهُ وَإِذا جَـــرى عَلـــى قَلبِـــهِ ذِكـــري يُصَـــدِّعُهُ
37- لَأَ صـــبِرَنَّ لـــدهر لا يُمَتِّعُـــنِي بِـــهِ ... وَلا بِـــيَ فِـــي حـــالٍ يُمَتِّعُـــهُ
38- عِلمـــاً بِـــأَنَّ اِصـــطِباري مُعقِـــبُ فَرَجـــاً فَأَضـــيَقُ الأَمـــرِ إِن فَكَّـــرتَ أَوسَـــعُهُ
39- عَـــلّ اللَيـــالي الَّتـــي أَضـــنَت بِفُرقَتَنـــا جِســـمي سَـــتَجمَعُنِي يَومـــاً وَتَجمَعُـــه
40- وَإِن تنـــل أَحَـــدَاً مِنّـــا مَنِيَّتَـــهُ فَمـــا الَّـــذي بِقَضـــاءِ اللَـــهِ ... يَصـــنَعُهُ

* * *

*** القراءة :**

*** المهيمنة :**

يقدم هذا النص تجربة إنسانية لشاعر وجد نفسه . في برزخ التحول . بين مرحلتين : (ماضية) يستعيد وقائع ما كابده فيها ، و(حاضرة) يعيش راهن تفجعاته في خلالها تفوهات شعرية آسية. ومن هنا فقد تزاحمت أدائية النص بالتعبير عن المرحلتين ، وتجسيد وقائع كل منهما .

وفي نوع من التكريس السلوكي (اللاواعي) الذي يكشف عن المخبوء من تعالقات النص مع الذات التي أنتجته فقد برزت هيمنةٌ تركيبيةٌ خاصة تمثلت في ضمائر بعينها ذهبت كلها لتشخيص الذات المتحدثة في النص وما كرسته من وجهة شعورية انساحت قيمها حتى على البنية (الحروفية) له .

*** استعادات ...خارج متن النص :**

يتفق الدارسون على أن هذه القصيدة لشاعر من العصر العباسي ،عاش بين أواخر القرن الرابع وبدايات القرن الخامس . شاعر تقول كثير من الدراسات القديمة . التي تداولت بعض تفصيلات وجوده الإنساني . بأنه (أبو الحسن علي بن زريق البغدادي) [1]، وإن قالت سواها بغير ذلك [2]. ولقب هذا الشاعر مأخوذ . طبقاً لما يرد في المعاجم . من (زريق) وهو اسم لطائر صغير الحجم [3].

وإذ اختلط اسم هذه الشخصية بغيره فقد بدا غير مستغرب أن تتداخل تفصيلات حياتها بسواه كذلك ، وأن يذهب كثير ممن تناولوها إلى الظن والتخمين ، وتقديم بعض الوقائع والأخبار التي سيقف منها آخرون موقف الإنكار أو التشكيك .

لقد ذكر بعض الذين استوقفهم هذا الشاعر أنه كان يعمل (كاتباً) في واحد من دواوين الدولة العباسية. وأنه حين نظم قصيدته هذه كان في مقتبل العمر، وأن له من الشعر ما يدل على تمكنه فيه[4] . ولسبب ما فقد ترك عمله وأهله ومدينته (بغداد) ، وهاجر إلى مكة وسكن بجوار الحرم المكي الشريف حتى وافته منيته ، ليمسي . هناك . فقيهاً معروفاً ، سمع عنه عدد من طلبة العلم الدارسين[5].

وحين استوقفتهم هذه القصيدة بإنجازها النصي المثير. عاطفة وخيالاً ولغة . فقد سعوا إلى البحث عما لشاعرها من نصوص توازيها ، فلم يجدوا ما يشبع رغبتهم تلك . وإذ بحثوا عن أسباب ذلك فقد اكتشفوا أن ما لديهم عن شاعرها وتفصيلات سيرته الإنسانية لا يختلف أمره عما لديهم من شعره . وهذا ما خلق إرباكاً في الرؤية والتشخيص ، فهذه قصيدة لشاعر متمكن من أدوات شاعريته في سطوعها التعبيري . وإذ لم يكن في الأمر من بد تتضح فيه الرؤية ، وتوجه القراءة التاريخية لحياة الشاعر متواصلة مع ما يخبر به النص لم يبق بالإمكان إلا التخمين والظن اللذين شرعا الباب لاحقاً لإضافات سردية متخيلة ، من قبيل وضع مبررات أنتج النص بسببها : كالقول بالعوز المادي الذي أصاب الشاعر ، فاضطر إلى مفارقة من يحب ، والتغرب بعيداً إلى حيث (الأندلس) طالباً رفد أحد أمرائها ، ولكنه مات قبل أن يتحقق له مبتغاه ، ليترك هذه القصيدة تحت وسادته تحكي عن ذلك الذي ألم به[6] .

*مستويات قراءة النص :

*المستوى المعجمي:

يقدم المستوى المعجمي موثوقيته المتماهية مع التوجهات (الموضوعاتية) لهذا النص عبر حزمة من المفردات ذات التمثل العاطفي التي تواجه متلقيه على نحو مباشر. لقد ذهبت مجمل المفردات إلى تأكيد الوجهة الوجدانية المهيمنة عليه ، وهي تتأطر في مكابدات الغربة التي ترددت الدلالات المؤشرة لمحتواها بتكرارات بينة ، وفي مفردات تحمل خاصية الإدلال المترادف عليها ، من مثل : (البين، النوى، السفر، الرحيل، الفراق) ، وكلها مما تكرر في أبياته لثلاث مرات أو أكثر .

ويؤشر النص فكرته عن أن ما حصل لصاحبه من معاناة إنما تأسس على رغبة استبدت به لتغيير أوضاعه المادية التي بدت دون طماحه . ولعل ذلك الهاجس الذي لم يستطع إسكاته ، حين لم يتهيأ له ما أراد هو الذي جعل مفردة (الرزق) تتكرر في النص لسبع مرات . بتتابع متسلسل وبصياغات تركيبية عدة . باثة دلالتها لتأكيد ما حصل ، أو لتبرير عدم حصوله :

تـــأبى المطـــامعُ إلا أن تُجَشّـــمه ... للـــ (رزق) كـــداً وكـــم ممـــن يودعُـــه
وَمـــا مُجاهَـــدَةُ الإنســـانِ تَوصِـــلُهُ (رزقَـــاً) ... وَلا دَعَـــةُ الإنســـانِ ... تَقطَعُـــهُ
قَـــد وَزَّع اللَـــهُ بَـــينَ الخَلـــقِ (رزقَهُـــمُ) ... لَـــم يَخلـــُق اللَـــهُ مِـــن خَلـــقٍ يُضَيِّعُـــهُ
لَكِـــنَّهُم كُلِّفُـــوا حِرصـــاً فلَســـتَ تَـــرى ... (مُســـتَرزِقاً) وَســـوى الغايـــاتِ تُقنُعُـــهُ
وَالحِرصُ فـي (الـرِزقِ) وَ(الأَرزاقِ) قَد قُسِمَت ... بَغِـــيُ أَلّا إِنَّ بَغـــيَ المَـــرءِ يَصـــرَعُهُ
(رُزِقـــتُ) مُلكـــاً فَلَـــم أَحسِـــن سِياسَـــتَه ... وَكُـــلُّ مَـــن لا يُسُـــوسُ المُلـــكَ يَخلَعُـــهُ

ولأن الشاعر متيقن من أن الذي حاق به أمر قدري فقد كانت مفردة (الدهر) هي من يذهب النص إليها في تشخيص المسبب ، فكان لهذه المفردة أن تكررت في الأبيات لمرات ست ، جاءت خمس منها بصيغة معرفة تأكيداً لمحتواها الدلالي المقصود :

قَـــد كـــانَ مُضـــطَلَعاً بِالخَطـــبِ يَحمِلُـــهُ ... فَضُـــيَّقَت بِخُطُـــوبِ (الـــدهرِ) أَضـــلُعُهُ
وَ(الدهرُ) يُعطِي الفَتى مِن حَيثُ يَمنَعُه ... إِرثـــاً وَيَمنَعُـــهُ مِـــن حَيـــثِ يُطمِعُـــهُ
مـــا كُنـــتُ أَحسَـــبُ أَنَّ (الـــدهرَ) يَفجَعُنِـــي ... بِـــهِ ...وَلا أَنَّ بـــي الأَيّـــامَ تَفجعُـــهُ
حَتّـــى جَـــرى (الدهـــر) فِيمـــا بَينَنـــا بِيَـــدٍ ... عَســـراءَ تَمنَعُنِـــي حَظّـــي وَتَمنَعُـــهُ
قَد كُنتُ مِن رَيبِ (دهرِي) جازِعاً فَرِقاً ... فَلَـــم أَوقَّ الَّـــذي قَـــد كُنـــتُ أَجزَعُـــهُ
لَأَصـــبِرَنَّ لـــ (دهـــر) لا يُمَتِّعُـــنِي ... بِـــهِ ... وَلا بِـــيَ فِـــي حـــالٍ يُمَتِّعُـــهُ

وإذ تنثال الذكريات على بوح الشاعر فإن مفردات من مثل: (الزمان ، الليالي ، الأيام) ستكون جزءاً من أساساً من لازمة التعبير وهو ماتمسك النص فأورد لكل منها حصة تركيبية دالة على مقاصده فيه.

ولعله لا يغيب عن التلقي ما في النص من إشارات ذات مسحة دينية ، تتأكد فيها نزعة تقارب المنطوق القرآني وتؤسس بعض تراكيبها على قيمه:

قَــد وَزَّع اللَــهُ بَــينَ الخَلــقِ رزقَهُــمُ لَــم يَخلــُق اللَــهُ مِــن خَلــقٍ يُضَيِّعُــهُ
وَالحِرصُ فـي الـرِزقِ وَالأَرزاقِ قَـد قُسِمَت بَغِــيُ أَلّا إِنَّ بَغــيَ المَــرءِ يَصــرَعُهُ
وَمَــن غَــدا لابِســاً ثَــوبَ النَعِــيم بِــلا شَكــرٍ علَيــهِ فَــإِنَّ اللَــهَ يَنزَعُــهُ
عِلمــاً بِــأَنَّ اِصــطِباري مُعقِــبُ فَرَجــاً فَأَضــيَقُ الأَمــرِ إِن فَكَّــرتَ أَوسَــعُهُ
وَإِن تنــــل أَحَــــدَاً مِنّــــا مَنيَّتَــــهُ فَمــا الَّــذي بِقَضــاءِ اللَــهِ ...يَصــنَعُهُ

وفضلاً عن ذلك فلعل في تكرار (لفظ الجلالة) بحدود مرات ثمان ما يدعم ذلك التمثل القيمي ويفصح عنه .

يجيء إيراد المفردة . مكرورة أو بصياغاتها الدلالية الأخرى . واحدة من سمات التداول المعجمي لهذا النص ، في نزعة شعورية تريد أن تؤكد ما تتداوله من أفق تعبيري انغلق على وجدانية منفعلة ، ربما وجدت في ذلك التكرار ما تكرس فيه انهماكها الشعوري ، وهكذا فقد تدافعت كثير من الأبيات وهي تنبيء عن تلك الفاعلية اللفظية :

1- تعذل / العذل
4- الخطب / الخطوب
14- يعطي/ يمنع ، يمنعه/ يطمعه
15- ودعته/ يودعني / أودعه
16- أدمعي/ أدمعه
23- الذنب/ ذنبي
24- الرشد/ الرشد
27 - لا يطمئن/ لا يطمئن / مضجع/ مضجعه
29 - تمنعني /تمنعه
34- عنده لي عهد صدق لا يضيعه - له عهد صدق لا أضيعه
35 - ذكره/ ذكري، قلبي / قلبه
36- يمتعني/ يمتعه
37- أضيق / أوسع
38- تجمعني / تجمعه

*المستوى التركيبي :

استجاب التركيب في هذا النص لطبيعة الاشتغالات المتعينة فيه فتبنى ملفوظية دالة عليها . لقد بدا تركيب جملة الفعل في هذا النص طاغيا ، ومكتنفاً للاسمية تحت جناح تعبيريته ، فكان أن استوعبت بنيته ما تجاوز المائة والثلاثين صيغة فعلية . سواء ما كان منها فعلاً صريحاً (109 فعلاً) أو فعلاً ناقصاً (10أفعال)، أو حرفاً مشبهاً بالفعل (21حرفاً) . وهذا يعني أن في كل بيت من أبيات النص ما يتجاوز الأفعال الثلاثة عدداً ، وتلك حصة لا يستهان بها في نص شعري ذهبت انشغالات أبياته لاستعادة الذكرى التي يفترض أنها قيمة (ماضوية) مستكملة لحدثها ومستقرة فيه ، الأمر الذي يهيئها أن تجيء ذات بنية تركيبية تجد في الجملة الاسمية . بما فيها من قيم الثبوت وقرارة الدلالة . ماينا‌سبها . ولكن هذا النص الذي بين أيدينا بكسر ذلك التوقع لينسج لنفسه تركيبه المناسب عبر استدراجه الصيغ الفعلية لتتماهى والتدفق الشعوري المنثال الذي يسعى إلى تبيان قيمه. غير أن تلك الصيغ تستعيد ثبوت الدلالة وديمومتها بطريقة أخرى ، تتمثل في هيمنة الأفعال ذات الزمانية الحاضرة الدالة على استمرارية فاعلية الحدث . سواء وهو يتبدى في أفق الذكرى المستعادة أو المشاعر دائمة الاهتياج . وتخطيه للزمن ، حتى وصول وقعه إلى تلك اللحظة التي يعايشها شاعره.

وسيلفت الانتباه –تأكيداً للهيمنة الفعلية المطلقة على النص– أن النظام التراتبي لمعظم أبياته يجيء مبتدئاً بالفعل ومنتهياً به أيضاً ، كما هي الحال في البيتين اللذين استهل بهما:

(لا تَعذَلِيه) فَإِنَّ العَذلَ يُولِعُهُ قَد قَلتِ حَقاً وَلَكِن لَيسَ (يَسمَعُهُ)

(جاوَزتِ) فِي لومه حَداً أَضَرَّبِهِ مِن حَيثَ قَدرتِ أَنَّ اللوم (يَنفَعُهُ)

ومثلهما الكثير الذي يقع في داخل النص .

وإذ جاءت معظم أفعال النص بصيغة زمانية حاضرة فقد بدا عليها أنها لم تكتف بتأكيد تلك السمة فيها بل لقد ذهبت باتجاه الاكتمال التركيبي حين تكيفت جملة متوازنة الأركان (فعل + فاعل + مفعول به) ، ولتأكيد وقعها الدلالي والزماني معاً فقد كانت لها مزية أن تختم منطوق غالب أبيات النص وتسورها بحدها التركيبي المتناعم : (يُولِعُهُ ، يَسمَعُهُ ،يَنفَعُهُ ، يَزمَعُهُ ، يَذرَعُهُ ،يودعُه ، تقطعه ، يُضَيّعُهُ ، تُقنُعُهُ ، يصرعه ، يَمنَعُهُ ، يُطمِعُهُ ، أودعه، أَرَقّعُهُ ،يُوَسّعُهُ ، يَخلَعُهُ ، ينزعه ، أَجَرَّعُهُ ، أَدفَعُهُ، ترجِعُهُ ، يُمرِعُهُ ، أُضَيّعُهُ ،يُصَدِّعُهُ ، مَتّعُهُ ، تَجمَعُه ، يَصنَعُهُ).

أما في داخل النص فسنواجه ببعض الصيغ من التأكيد والثبوت المتواترين من قبيل مجيء صيغة (قد والفعل) مستعادة لمرات ست : (قَد قَلتِ .../ قَد كانَ .../ قَد وَزَّع ... قَد قُسِمَت ... / قَد كُنتُ . وسنلاحظ أن النص تداول (قد) وفي المرات كلها مع الفعل الماضي ، وليس الفعل المضارع ، لأنها مع الأول تفيد غاية (التوكيد وترسيخ الحدث) ، وهما المبتغى في النص ، في حين تكون مع الفعل المضارع لغاية (التقليل) الذي لا مكان له في خضم أدائيته المنفعلة .

تتماهى جملة (الحرف المشبه بالفعل) مع ذلك التكيف الزماني الممعن بتركيبته حاضراً ، وتتكرر بمقدار لا يستهان به . وإذا كان تداول بعض تلك الحروف وجملتها قد أتى بحالات محدودة لا تلفت الانتباه : (كَأَنَّما هُوَ ...مُوَكَّلٍ ، لكِنَّهُم كُلِّفُوا)[7] فإن تردد جملة (أنّ / إنّ) كان على غير ذلك، إذ تواترت بكثرة بينة، من مثل : (فَإِنَّ العَذلَ يُولِعُهُ، أَنَّ اللوم يَنفَعُهُ ، أَنَّ لَهُ ، أَنّي لا أَودعُهُ ، إِنّي أَوَسِّعُ ، فَإِنَّ اللَهَ يَنزَعُهُ ، أَنَّنِي ...اتبَعُهُ، إِنّي لَأَقطَعُ ، أَنَّ الدهرَ يَفجَعُنِي ، أَنَّ بِي الأَيّامَ تَفجعُهُ، أَنَّ اِصطِباري مُعقِبُ، إِنَّ بَغيَ المَرءِ يَصرَعُهُ) ، وهي في ذلك إنما تأتي مكرسة في النص مالها من دلالة تتماهى مع وجهته من خلال نسق التركيب الذي تصنعه . وهي التي تحمل زمانية الفعل المضارع (أؤكد) ودلالته . وعبر رسوخ ذلك التأكيد وثبوتيته في جملتها التي هي في مكوناتها الأساس جملة (مبتدأ وخبر) .

تأتي التركيبة الاسمية . كما مرت الإشارة إليها . في كنف الفعلية استكمالاً لسياقات تركيبها وحدها الدلالي ، وهي ميزة تركيبية ودلالية انماز بها النص وتكرس لها، في استجابات شعورية مثيرة لما يعتمل في ذات شاعره . ومن هنا فلعل الحديث عنها . معزولة عن سياق تركيبها لا يكاد . يقول شيئاً جديداً أو مغايراً .غير أن ما يستوقفنا من تمثلات اسميتها هو ذلك الذي بثته (الضمائر) التي هيمن على التردد الباذخ فيها الضمير (هو) عائداً . بمحموله الدلالي . على صوت الشاعر المتكلم في النص وحده ، مكيفاً الضمائر الأخرى في مآل الاستجابة لتوجهاته الشعورية [8]، ف (هو) . وعلى سبيل التمثيل . حين يخاطبها (لا تعذليه ...) فإنما تلك لحظة حضور واستحضار وتحاور. هنا هي الحاضرة (أنت) والشاعر ملتفع بغيابه (هو) ولكنه يسلط عليه رغبته المتوسلة كي يغيب أمراً قامت به (هي) في الماضي وهو (العذل) ، ليضعها تحت سطوة مكابدته الراهنة . وإن بدا مستعطفاً . فيكيف وجودها معه عبر مخاطبتها بضمير المؤنث (أنت)، وتلك ممارسة إدائية يستدرجها إليها كي يوجه نبرته الآمرة نحوها .

وسيفعل الأمر نفسه . لاحقاً . مع (المنزل) الذي يعرف أنه لم يعد كما كان، ولكنه يستدعيه . من خلال مناداته . ويوجه خطابه إليه ، راسماً له صورة متمناة :

بِاللَـهِ يـا مَنـزِلَ العَـيشِ الَّـذي دَرَسـت آثـــارُهُ وَعَفَـــت مُـــذ بِنـــتُ أَربُعُـــهُ
هَـــل الزَمـــانُ مَعِيـــدُ فِيـــكَ لَـــذَّتُنا أَم اللَيـــالِي الَّتـــي أَمضَـــتهُ تُرجِعُـــهُ
فِـي ذِمَّـةِ اللَـهِ مِـن أَصـبَحَت مَنزِلَـهُ وَجـــادَ غَيـــثٌ عَلـــى مَغنـــاكَ يُمرِعُـــهُ

لقد ابتدأ سياق التداول التركيبي لضمائر النص بمنطقية دلالية معتادة ، حيث (هو) المذكر بإزاء (أنت) المؤنث ، ولكنه ومنذ البيت الخامس عشر:

اِستَودِعُ اللَهَ فِي بَغدادَ لِي قَمَراً بِالكَرخِ مِن فَلَكِ الأَزرارَ مَطلَعُهُ

يغادر ذلك السياق المعتاد ، ويعيد تشكيل الأداء على نحو يؤدي فيه الضميران (أنا) العائد على الشاعر و(هو) الذاهب إلى الحبيبة أدوار المكاشفة الدلالية وحتى آخر أبيات النص . حيث لا يشير إليها بضمير المؤنث بل المذكر. وعندنا فإن ذلك يمثل نزوعاً شعورياً نحو تغييب الحبيب في نوع من التماهي معه ، فضلاً عن كونه مجاراة لواحد من أعراف التعبير الشعري الذاهب إلى ذكر الحبيب بوصفه (المثال) المطلق .

ولأن القصيدة في مكابدات الذات تلك التي استحضرت صورة الحبيب كما تريد مشاعرها فإن العودة إلى تشكيل وقائع ما تعانيه أمر لم يكن لها عنه بد ، لتهيمن (أنا) الشاعر وتكرر نفسها على نحو لافت الدلالة في الضمائر المشيرة إليها : (خل (ي) ، لي ، ذنب (ي) ، أنني ، إني ، قلبي) .

كان لحروف المعاني في هذا النص شأن جدير بالإشارة ، حيث تداولها كلها تقريباً ، ولاسيما حروف الجر التي كان فيها التكرار البين للحرفين (من) و(في) اللذين ترددا لثلاث عشرة مرة فيه. ولعل استعادة مالهما من معنى (التبعيض) في الأول ، و(الاكتناف) في الأخر هو بعض التمثل القيمي الذي شغل النص به . فهذا الذي يستعيده الشاعر في نصه هو (بعض) الذي كان ،(مكتنفاً) إياه في لحظته الراهنة ، ومستعيدا معه ماكان من له مع الحبيب الذي لم يعد له (من) وجوده إلا الذكرى التي يماهي لحظته الراهنة (في) تفوهات استعادتها ومكاشفتها بالذي يعتمل في داخله كله.

*المستوى الصوتي:

(1)

كنا قد أشّرنا . في المستوى المعجمي . سمة التردد المستعاد لمفردات ذات إفاضة دلالية استجابت لوجهة النص الشعورية . ولنا أن نستعيد الحديث عنها في هذا المستوى كونها تركت سمتها في البعد الصوتي ، حيث التكرار . ومع ما يكون له من مقاصده دلالية . فاعلية صوتية تلفت الانتباه إليها بمجرد التفوه بها . وإذا كنا . خشية الإطالة . لا نرغب بتكرار الأمثلة التي توقفنا عندها هناك فسنكتفي بتدبر القيمة الصوتية المبثوثة لها في البيت الواحد نفسه ، سواء من خلال تكرار المفردة ذاتها أو بشيء من التبدل التركيب الذي تحافظ على أصلها الأصواتي فيه :

- **جـــاوَزتِ فِـــي (لومـــه) حَـــداً أَضَـــرَّبِهِ مِـن حَيـثَ قَـدرتِ أَنَّ (اللـوم) يَنفَعُـهُ**
- **قَـد كـانَ (مُضـطَلَعاً) (بِالخَطـبِ) يَحمِلُـهُ فَضُـيِّقَت (بِخُطُـوبِ) الـدهرِ (أَضـلُعُهُ)**
- **مـــا آبَ مِـــن (سَـــفَرٍ) إِلّا وَأَزعَجَـــهُ رَأيُ إِلـى (سَـفَرٍ) ...بِالعَـزمِ يَجمَعُـهُ**
- **وَالحِرصُ فـي (الـرِزقِ) وَ(الأَرزاقِ) قَد قُسِمَت (بَغِـيُ) أَلّا إِنَّ (بَغـيَ) المَـرءِ يَصـرَعُهُ**
- **(وَدَّعتُـــهُ) وَبـــوُدّي لَـــو (يُـــوَدِّعُنِي) صَفـــوَ الحَـــياةِ وَأَنّـــي لا (أَودعُـــهُ)**
- **لَـــو أَنَّنِـــي يَـــومَ بـــانَ (الرُشـــدُ) اتبَعُـــهُ أَلا أَقمـــتَ فَكـــانَ (الرُشـــدُ) أَجمَعُـــهُ**
- **(لا يَطمِـــئنُّ) لِجَنبـــي (مَضـــجَعُ) وَكَـــذا (لا يَطمَـئِنُّ) لَـهُ مُـذ بِنـتُ (مَضـجَعُهُ)**
- **مَـــن عِنـــدَهُ (لِـــي) (عَهـــدُ) (لا يُضـــيّعُهُ) كَمـا (لَـهُ) (عَهـدُ) صِـدقٍ (لا أُضَـيِّعُهُ)**

حين نغادر البعد الصوتي المستعاد في المفردات إلى حيث ما انضوى في كنفها من أصوات الحروف سنجد أن هذا النص يأتي متداولاً لحروف المعجم كلها تقريباً .غير أن تبنياً لأصواتية حروف بعينها هو ما أعطاه خصوصية التمثل المخبرة عن بعض أسراره .

فإذا ما استثنينا . في مسعانا الإحصائي للذي تداوله النص من حروفية . (حروف الذلاقة) تلك التي استقرى لها (الفراهيدي) كثرة ورودها في الكلام [9] فإن عدداً معيناً منها سيكاشفنا بتردده البين في النص ، لعل أبرزها حرف (العين) ، لا لأنه جاء صادحاً في نهاية كل بيت بوصفه حرف (الروي) . كما سنقف عنده لاحقاً . حسب بل لانضوائه المكرور في مساحات لفظية أخرى داخل النص كذلك،حتى ناف تردده على السبعين مرة.

وينظر إلى (العين) على أنه حرف مجهور، ويوصف كل حرف من هذا النوع . طبقاً لقول ابن جني . بأنه " حرف أشبع الاعتماد من موضعه ، ومنع النفس أن يجري معه ، حتى

ينقضي الاعتماد ويجري الصوت "[10] وقد جعله (الفراهيدي) أول حروف معجمه الذي سماه باسمه ، كونه يأتي من أقصى الحلق، أي من أول منافذ النطق في الجهاز الصوتي البشري. [11] ، ليخالفه تلميذه (سيبويه) في ذلك عاداً (الهمزة) أولاً [12].

لقد تبدت للعين –في هذا النص– فاعلية تركيز صوتي جعلت من نطقه ممارسة شعورية توحي بنوع من الحشرجة المندفعة التي تستحيل –حين اجتماع صوت الهاء معه– إلى نفثة لفظية سيكتمل مسارها مع إشباع حركة الروي وتمثلها(واوا) تنتهي عند مده تلك المساحة الصوتية المندفعة .

وإذا كان (اللام) من بين حروف الذلاقة فإن تردده في النص بما يتجاوز ضعف حصة مثيلاته الأخر . مستبعدين منه (لام التعريف) كونها ليست من أصل المفردة . يضعه تحت منظار تأملنا ، لنستفيد من حضوره في المقاصد التي تدعم رؤيتنا .

يعد اللام كسابقه من الأصوات المجهورة التي يأتي ترددها بين الشدة والرخاوة[13]، ولكنه يتفرد بصفة أن اللسان ينحرف فيه مع الصوت[14].، وهو ما يصنع له نبرة تميزه المعلنة عن طاقة أداء صوتي بين .وسيكون الأمر نفسه في موقفنا من (حروف العلة) تلك التي تهامت في النص . هي والحركات المماثلة لها والمحملة بنصف طاقتها الصوتية[15] ، لتصنع هيمنة صوتية مطلقة فيه . و سيشغلنا منها (الياء) الذي تقدمها بكثرة ترداده ، حتى بلغ –من دون أن نضيف إليه الكسرة– ما قارب على المائة والعشر من الترددات ، فضلاً عن أنه يلتقي مع العين والياء في كونه تردده الصوتي يجيء بين الشدة والرخاوة [16] .

ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الذهن متعلقاً بهذا الذي قمنا به سيكون مؤداه : ما الذي يقدمه هذا الجهد الإحصائي الذي توقف عند (الياء واللام والعين) من دون سواها من الحروف الأخرى ؟

وجوابه : إننا نتبنى نتيجة ما قمنا به من جهد إحصائي لنقول إن أصواتية النص قد وضعت بين يدي مقاصدنا ترددات حروف بعينها أكثر من سواها ،وهي الحروف الثلاثة المشار إليها أعلاه ، تلك التي سنكتشف أن مجموعها لا يكاد ترتيبه يقدم للتلقي اسماً له دلالة مفيدة إلا حين نقدم (العين) ، تليها (اللام) ، فـ (الياء) ، ليكون مجموعها اسم : (علي) !

فهل كان الشاعر . وفي تداول صوتي غير واع . قد أخفى اسمه بين ثنايا حروفية قصيدته ، وكأنه يستشرف تلك اللحظة القدرية التي ستحمل فيها الأزمنة الآتية بعد زمانه تباين الأقوال بشأن اسمه وحقيقة وجوده ، ونسبة نصه إليه ؟!

ولعل الأمر لن يقف عند اسمه وحده ، فقد ترددت في ثنايا مفردات النص . وعلى نحو لافت . حروف (الراء) و(القاف) و(الزاي) ، وإذا استعدنا هنا ما كان من أمر (الياء) فسيكون من الطريف أن مجموع تلك الحروف سينص على لقبه (زريق) ! .

من خلال ممارسة صوتية نرصدها في هذا النص . وسنجد مثلها في النصوص الشعرية الأخرى ، كون التناسق الصوتي واحدة من جماليات التعبير الشعري . فإن حروفاً بعينها يتناغم ورودها في الكلمات المتجاورة ، ليعلن ذلك عن فاعلية تردد إيقاعي تواصل قيمها في أكثر من مفردة ، وهو ما تكشفنا به أكثر من جملة شعرية في النص ، من مثل : (العَذلَ يُولِعُهُ / قَد قَلتِ حَقاً/ لَيسَ يَسمَعُهُ / مضطلعاً بالخطب/ بالعزم يزمعه / حل ومرتحل/ كدّا وكم/ الخلق رزقهم / لم يخلق الله / لكنهم كلفوا/ والأرزاق قد قسمت / قمراً بالكرخ/ أوسع عذري/ أحسن سياسته / ليلي لست / البين فيما بيننا/ فرقاً فلم أوف/ فرجاً فأضيق / جسمي ستجمعني) ولا نشك في أن هذا الاستدراج الصوتي له مايبثه من قيم شعورية عبر فاعلية من الاستدعاء تتكيف لها الأدائية التعبيرية المنفعلة .

من بين الظواهر الصوتية الأخرى فقد جلب انتباهنا أن حرف الواو . وهو يصنع مده الصوتي في آخر الأبيات . قد فرض أصواتيته في استهلال عدد منها كذلك ، مجسداً بذلك تأوهاً طويلاً يستبد بالبيت الشعري من أوله وحتى آخره :

وَمـا مُجاهَـدَةُ الإِنسـانِ تَوصِـلُهُ رزقَـاً ... وَلا دَعَـةُ الإِنسـانِ تَقطَعُـهُ
وَالـدهرُ يُعطِـي الفَتـى مِـن حَيـثُ يَمنَعُـه ... إِرثـاً وَيَمنَعُـهُ مِـن حَيـثِ يُطمِعُـهُ
والحِرصُ فـي الـرِزقِ وَالأَرزاقِ قَـد قُسِمَت ... بَغِـيُ أَلّا إِنَّ بَغـيَ المَـرءِ يَصـرَعُهُ
وَكَـم تَشـبَّثَ بـي يَـومَ الرَحيـلِ ضُـحَىً ... وَأَدمُعِـي مُستَهِـلّاتٍ وَأَدمُعُـهُ
وَدَّعتُـهُ وَبـوُدّي لَـو يُـوَدِّعُنِي ... صَفـوَ الحَـياةِ وَأَنّـي لا أَودعُـهُ
وَمَـن غَـدا لابِسـاً ثَـوبَ النَعِـيم بِـلا ... شَكـرٍ عَلَيـهِ فَـإِنَّ اللَـهَ يَنزَعُـهُ
وَمَـن يُصَـدِّعُ قَلبـي ذِكـرَهُ وَإِذا ... جَـرى عَلـى قَلبِـهِ ذِكـري يُصَـدِّعُهُ
وَإِن تنـل أَحَـداً مِنّـا مَنِيَّتَـهُ ... فَمـا الَّـذي بِقَضـاءِ اللَـهِ يَصـنَعُهُ

(2)

لسنا مع القول الذي (يقنن) بحور الشعر العربي في أفق تعبير شعوري محددة ، إذ هي قوالب اشتغال إيقاعي تمثلت مختلف التوجهات الشعورية التي وضع الشعراء العرب قصائدهم عليها ، وعلى هذا فالوزن . في تشكله الصوتي المجرد . " لا يمكن أن يحتمل أية دلالة انفعالية " [17]. ولكننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن (التموضع الإيقاعي) الذي يستمكن النص الشعري منه بعد استقراره على وفق البحر الذي صار عليه ، ومنذ بيته الأول [18] ، لتستجيب بنية النص الإيقاعية إلى حدود ذلك البحر وتتماهى مع تراتب نظامه التفعيلي الذي جرى التزامه من جهة ، ويصبح لتفوهات تلك التراتبية الإيقاعية ما يؤشر قيم الترنم الخاصة التى صار قالب ذلك البحر عليها في النص من جهة أخرى . على هذا الأساس نعد في مجيء النص الذي بين أيدينا على بحر (البسيط) مايمكن أن نستقري دلالته ،فطول النفس في هذا الوزن وتعاقب تفعيلتيه :السباعية البعيدة الامتداد (مستفعلن) ، والخماسية (فاعلن) ، ومجيئها في آخر البيت (مخبونة) [19] ولّد مساحة ترنم شجية ، نلمسها في هذه القصيدة وقصائد أخرى على الإيقاع ذاته ، بدا فيها تناغم معبر بين البعدين اللفظي والوزني اللذين انسجما في تمثل العاطفة التي حملها الشاعر نصه[20].

تكاشفنا (القافية) التي احتكم هذا النص إلى مؤداها بجملة من القيم الإيقاعية المتماهية مع وجهته الشعورية .

وسيكون في بدء ما نشخصه طبيعة التكوين الموسيقي والدلالي الذي جاءت هذه القافية عليه . فلعلها من الحالات القليلة التي أتت فيها ذات مساحة صوتية طويلة (جملة أو سواها) دالة على معنى ، ومتداولة لكل ما اصطلحه العروضيين من حروف للقافية [21] ، وكأنها تسعى إلى التماهي مع البعد الانفعالي ، حيث عمق المعاناة التي يكابدها الشاعر وطول غربته واتساع مساحة تأوهاته ، لاسيما حين يختمها حرف الواو بمده الطويل : يولعه(و) ، يسمعه(و) ، مطلعه(و)، وددعه(و) ... يصنعه(و) .

*الخلاصة ... منجز النص الدلالي :

هذا النص مثال متميز لما يسعى إليه التلقي وهو يقارب مابين يديه مباشرة ، ومن دون موجهات خارجية تتعلق بتاريخية إنتاج النص أو بالوقائع الشخصية المستمدة من حياة منتجه تلك التي تستحيل متوناً تلزم القراءة وتشغلها.

فلعلها من الحالات النادرة التي تواجه القراءة فيها نصاً لا اتفاق على كثير من تفصيلات المتون المحيطة به ، بدءاً من شاعره الذي تردد له أكثر من اسم وكنية ،ومروراً بتفصيلات ظرفه الإنساني ، وطبيعة المهنة التي كان يمارسها، وخبر رحلته إلى (الأندلس) ، وتشكيك البعض به ، وانتهاء عند حدود النص وعدد أبياته[22].

إننا . إذن . إزاء نص حر من محددات الذات التي أنتجته في وقائع وجودها التاريخي وتفصيلاته ، فنحن نواجهه قرائياً ولا نعرف إلا القليل المضطرب عن منتجه ، وما نعرفه مختلف عليه . وهذا الذي نتلقاه عنه لا يكاد يضيف شيئاً لم يخبر به النص ذاته ، سوى تفصيلات يبدو عليها الاختلاق رغبة في التعاطف مع صاحبه ،أو لتأجيج أفق التلقي وإثارته كي يقف عند هذا النص و يتأمله .

وهناك سمة أخرى لهذا النص ، تتمثل في كونه لا يتداول غرضاً بعينه من أغراض الشعر العربي المحددة . فهو تمثل لتجربة إنسانية التوجه تنداح في أفق الذات وتمعن في تفحص شجونها عبر صياغة ربما استوعبت أكثر من غرض شعري ، التشوق والحنين ، والشكوى والحرقة ، وتعنيف الذات حد هجائها ، والحكمة التي تتناثر بروقها عن التجربة ، واستذكار سجايا الحبيب والتغزل به .

منذ بيته الأول يخبرنا النص أن هناك شخصاً يعيش وحدته غريباً مباعداً عن حبيبته التي رحل عنها ساعياً في طلب الرزق ، الذي لم يكتب له أن يناله ، وهاهو يبوء بخيبته ، حتى لم يعد له سوى أن ينزوي وحيداً ، مستعيداً ما كان له من الذكريات.

لقد بدت معمارية النص (الموضوعاتية) موزعة على ثلاثة أبعاد من الاشتغال يعبر (الأول) عن وقائع خاصة تجمع الشاعر بالحبيبة (الغائبة / المستحضرة) وما استعاده لها من تفصيلات موقف عذل وعتاب كرسه الشاعر في الأبيات الثلاثة الأولى التي هيمنت عليها ثنائية تركيبية توزعها الضميران (أنت) للحبيبة المخاطبة بضمير التأنيث و(هو) الذي يقف إزاءها منكسر البوح ، مع أن وجوده التركيبي يستبد بمعظم مساحة النص التي لن يغادرها إلا حين ينوب عنه الضمير (أنا) الذاهب إلى الشاعر نفسه .

ويتمثل الاشتغال الثاني في ما يجعله الشاعر حصة له مع تلك الحبيبة ، مستعيداً المواقف التي كانت بينهما ، أو ما يترسم فيه مشاعرهما الراهنة بعد الذي حل بينهما من الفراق الممض الذي يراكم الشاعر له كشوفات التوق العاطفي بينهما . ومع هذين الاشتغالين

تتبدى في أبيات أخرى توزعت بينهما مساحة من القول الحكيم الذي هو نضح معاينة الشاعر لهذا الذي انتاب وجوده الإنساني وأقلقه .

من دون مقدمات يبدأ الشاعر خطابه الآمر للحبيبة (لا تعذليه) ، ولاشك في أن هذا الخطاب مسبوق بجملة غير مدونة من المشادات الشعورية الداخلية والاستعادات لما كان قد حصل فعلاً أو تخيلاً ، ومجادلة الذات والآخر عبرهما ، قبل أن تتفجر اعتمالات الداخل لتصدح بما تكابده إلى خارجه .

وهو حين يطلب منها ألا تعذله . ناقلاً ذلك من لحظته الماضية إلى لحظة مكاشفة حاضرة . إنما ليلوم نفسه على ما بدا منه حين ركبه العناد ليمعن في الرحيل مجدداً (فإن العذل يولعه) . لقد كان على بينة من أن ما تقوله هو الحق، ولكن (ليس يسمعه) لأن أقداره جعلته (مضنى القلب موجعه) . ولعله استمرأ عناده ومخالفته إياها ، مؤسساً موقفه على تلك الرؤية التي سبق أن قال بها (أبو نواس) في واحدة من لمحات تأمله للسلوك البشري : (دع عنك لومي فإن اللوم إغراء)[23] .

يخاطب الشاعر تلك المرأة المتشبثة برغبتها أن تبقيه معها ، ولكنه كان قد (ركب رأسه) كما يقول المثل الشعبي .وأصر على ما اكتملت سطوة وجوده متحكمة فيه : الرحيل ، و(هي/ الحبيبة) ما انفكت ساعية لثنيه عن قراره ، متدرجة معه في كلامها من (العذل) إلى (اللوم) ، وحين لم يجد ذلك معه لم يبق لها إلا (تعنيفه) .

لقد استحضر الشاعر وجوداً (أنثوياً) قريباً إلى نفسه ، تربطه به صلات إنسانية حميم ، وعاطفة حب جياشة في نفسيهما :

وَكَم تَشبَّثَ بي يَومَ الرَحيلِ ضُحَىً وَأَدمُعِي مُستَهِلّاتٍ وَأَدمُعُهُ

ولعلنا نميل إلى ترجيح أن تكون تلك المرأة زوجاً له ، منطلقين من سعة الحديث المتداول بينهما وطبيعة العواطف المشتركة ووقائع السلوك التي عايشاها معاً ، وهي أكبر من أن تكون صلة عشق بين اثنين لم يلبثا أن افترقا .

وهو إذ يعود إلى مكاشفة ذاته بما كان لها سيقرّ بمدى ما اختطته له مقاديره تلك التي جعلته (مُضطَلَعاً بِالخَطبِ يَحمِلُهُ) ، بل هي جملة خطوب متلاحقة عصرت قلبه بين ضلوعه وضيقت عليه ، فما كان منه . في مسعى مواجهتها وتحديها . إلا أن يكسر سجون أقداره بالرحيل بعيداً . فأمسى كما (السندباد) لا يكاد تستقر به الحال حتى يعيد كرة الرحيل

ثانية . ولكنه لم يكن كرحيل الآخر مجدياً، بل لعله أقرب ما يكون إلى العبث واللاجدوى ، إذا مالذي يحققه من يقضى عمره (فِي حِلٍّ وَمُرتحل) وكأنه (مُوَكَّلٍ بِفَضاءِ اللَهِ يَذرَعُهُ)؟!.

يورد الشاعر . بين ثنايا نصه . جملة من الأبيات التي تخبرعن شخصية متزنة ولها رصيد من التجارب والمثاقفة الذي تستعيده على نحو من الخبرة الحكيمة . ولعله . وهو يصنع لها متونها في خضم اشتجاره العاطفي إنما كان يمارس سلوكاً يوحي بشيء من (المازوشية) يعاقب من خلاله نفسه التي لم تقف عند تلك الحكمة وتتمثل قيمها، ليتجاوز بها ماكان من سلوكه ومواقفه اللذين أوصلاه إلى الحال التي هو عليها .

لقد أمسى . بحكمته تلك . رجلا آخر يمتلك حداً من اليقين الذين سيناقض فيه ما كان منه ، ليعلن من خلاله بأن الرزق حظوظ مقدرة ، وأن البشر إنما تطغى عليهم نوازع الإثرة والأنانية فيبالغون في مسعى الحرص الذي يستحيل (بغياً) يكون فيه مصرع صاحبه ، كهذا الذي انتهت إليه حاله .

يستلهم الشاعر . في عودة لاحقة إلى موضوعة النص الأساس . لحظة الإمساك بزمانية مضت ، فيتذكر وقائع فراقه لتلك المرأة التي شغلت وجوده العاطفي كله .وهنا يقوم باستبدال الضمير الذي يشير به إليها، ليصبح (هو) ، لعله نتاج احتكام شعوري ألم بالشاعر . وقد أمسى ذلك الحبيب نائي البعد . ولكنه حاضر في الروح الضمير والذاكرة ، كما (قمر) تهال عليه أضواؤه أينما حل . هكذا يصبح القمر (المذكر في العربية) قريناً شعورياً للحبيب ، بدلالة ما يبثانه على وجود الشاعر من أضواء (مادية) للقمر ، ووجدانية للحبيب وعبر ذلك يصبح التماهي بين الحبيب والقمر متلازمة تعبيرية دالة على مآثرهما من البث الشعوري والجمالي التي تلقاها الشاعر . وإذا كان للقمر مكانه في السماء فإن للحبيب . الذي رحل عنه ، و ثوب صبره (منخرق) عليه اليوم . عنوانه الذي يستعيده الشاعر بتلهف عاطفي يشد ذاكرته فيه إلى المكان فيشخص مسماه (بغداد / الكرخ) .

وسوف يكاشفنا الشاعر بالتعبير عن نوع من الممارسة العاطفية المزدوجة الاضطراب، فهي تحمل مسحة من (المازوشية) يلقيها على ذاته ،وأخرى من (السادية) الذاهبة باتجاه الحبيب :

إنّي أَوَسِّعُ عُذري فِي جَنايَتِهِ بِالبينِ عِنهُ وَجُرمي لا يُوَسِّعُهُ

والسؤال (اللاح) هنا : ما الذي يمنعه من العودة إلى (بغداد) حيث كان يقيم ، أو أن يجلب الحبيب إلى حيث يقيم هو حينها ؟ .ألا يمكن أن نجد في ظرف قاهر مرّ به . سياسياً أو مادياً . ما يبرر ذلك السلوك عنده ؟ .

وسوف يستوقفنا التساؤل مرة ثانية حين نقف عند ما ورد في شطر بيت لاحق حمله إشارة دالة على واقعة حياتية معينة ، ألقى في وجهها . وفي الشطر الآخر من البيت نفسه . بالحكمة التي باحت بموقف شماتة صادحة :

رُزِقتُ مُلكاً فَلَم أَحسِن سِياسَتَه وَكُلُّ مَن لا يُسُوسُ المُلكَ يَخلَعُهُ

ولنا ان نتساءل هنا : ما هذا (الملك) الذي رزقه ولم يحسن الاحتفاظ به؟ أهو(الحبيب) أم ما كان له من مال ومنصب وجاه ؟ .

إِذا الزَمانَ أَراهُ في الرَحِيلِ غِنىً وَلَو إِلى (السَندّ) أَضحى وَهُوَ يُزمَعُهُ

يبث لنا النص . في هذا البيت . مستنداً تعبيرياً ذا دلالة جديرة بالتوقف عندها . لقد استحضر بعض ممن استوقفتهم هذه القصيدة متناً حكائياً محايثاً يشير إلى رحيل الشاعر نحو الأندلس . في حين يجيء البيت أعلاه ليتحدث عن وجهة أخرى (السند) ،يدعي الشاعر أنه مستعد لأن يقصدها من أجل طماحه ، فهل تذكر الشاعر . وهو في أقصى الغرب عن بلدته . الجهة المضادة ، فذهب إلى استحضار أقصى الشرق ، أم أن الأمر . في بعديه الجغرافيين . النصي والحكائي . مجرد إشارات تضفي على النص مسحة درامية شادة .؟

وإذ يواصل النص إثارة التساؤلات فإن أخر ما يعن لنا منها . وقد اتكأنا على ما أخذنا إليه فحصنا المتأني له من قناعة بأنه لشاعر اسمه (علي بن زريق البغدادي) . هو التساؤل الآتي : في أي من مراحل حياته كتب ابن زريق هذه القصيدة ؟

لن نأخذ بالتوثيق الذي قالت به بعض الدراسات من أنه نظمه في مقتبل عمره ، أيام كان (كاتباً) في أحد دواوين الدولة ، فلعله في تلك الحال المستقرة غير مهيأ إلى التعبير عن هذا المستوى الطافح بالانفعال ، فضلاً عن النضج العالي في التجربة التي كان يفترض بها أن تنيله شهرة ومكانة ، وأن تترادف عنده لها نصوص شعرية أخرى لا تقل عن مستواها ، الأمر الذي لم يتحقق له . كما لا يمكن الركون إلى أنه نظم هذه القصيدة حين استقرت به الحال (فقيهاً) في مكة ، فليس من لغة الفقهاء ومنطلقات تعبيرهم هذه النجوى العاطفية الملتاعة ، كما أن ليس من طبائع وعي أي منهم أن يعاتب الدهر متجاوزاً إيمانه بقضاء الله وقدره .

إن كلا حالتي الشاعر (كونه كاتباً أو فقيهاً) ويعيش وضعاً طبيعياً لا يكاد يؤهله لإنتاج مثل هذا النص ، فمن يصنع نصاً بهذا المستوى من التوهج العاطفي يحتاج إلى أن يتمتع بقدرة عالية على التقمص المنفعل ، ومقدرة أكبر على التجرد من وجوده المتطامن مع ظرفه المعتاد والتفوه بعاطفة لا يكاد يعانيها ، وذلك أمر ليس من السهل التوافر عليه . إن في النص مكابدات شعورية حقيقية وإحساس بالبعد والاشتياق ، ولا يمكن لهذه القصيدة أن تصدر عن تجربة غير معيشة وذات غير ملتاعة . إنها لشخص يتحدث عن حبيب مفارق لا تراه عينه وحنين إليه يجرف كل مقدرته على التصبر ، وإحساس متعاظم بالذنب لمفارقته ، وخيبة تتلاشى في خضمها ذاته ، وكل ذلك لا يصدر من شخص يعيش ظرفاً طبيعياً قد اعتاده . ولذا فليس لنا إلا أن نتساءل أخيراً : هل غادر (علي بن زريق) عمله في بغداد (كاتباً) وذهب ليستقر في (مكة) برغبته أم اضطر إلى ذلك ، في لحظة من تمرده الذاتي على ظرف سياسي ، أو واقع عيش لم يعد يرتضيه ، أو نتيجة لنزق السلطة وغضبها عليه ، لسبب نجهله. ليغادر مدينته وبيته مرغماً . وربما هارباً . بطريقة لم تكن سهلة الخطوات. ولعله ترك زوجته في بغداد ، ولم تستطع اللحاق به ، فاشتد به الشوق والحنين وبرحاه ، فكتب هذه القصيدة ، قبل أن تمر به الأعوام ويصبح فقيهاً معروفاً في مكة .وهذا يعني أن الشاعر نظم القصيدة في مساحة (برزخية) بين مرحلتين من حياته .

وعلى وفق هذا التصور من سيرته فإن (ابن زريق) لم يهاجر غرباً إلى حيث (الأندلس) ، ولم يقصد أياً من كبرائها طالباً رفده ، وأن حكاية موته والقصيدة تحت وسادته محض تمحل من بعض رواتها .

* * *

***هوامش القراءة :**

(1) ترد هذه القصيدة في ذاكرة الشعرية العربية على نحو تاريخي متواتر. وسوف نستعيد هنا . ونضيف إليه . ما كان الدكتور (محسن غياض) قد أورده عنها وعن وصاحبها من عرض مهم بأسماء الدارسين من القدامى والمحدثين لها (ينظر: ابن زريق البغدادي .. بين الحقيقة والخيال، مجلة العرب ، السنة 33 ،ص735 .749) ، وهم بحسب التراتب التاريخي :

- أبو حيان التوحيدي (414هـ) ، وقد ذكر من القصيدة البيتين (15-16) - من دون أن يذكر اسم الشاعر- في كتابيه : (الإمتاع والمؤانسة)(166/2) و(الرسالة البغدادية) (ص252) التي نسبها غياض إلى غير التوحيدي ، وهي له كما أثبت محققها الأستاذ (عبود الشالجي) ذلك .
- الثعالبي 429هـ ، يتيمة الدهر،377/2.
- ابن ماكولا (475هـ) ، الإكمال ،153/4
- ابن السراج (500هـ) ، مصارع العشاق ، 23/1.
- السمعاني 562هـ ، الأنساب ،292/6.
- ابن النجار (643هـ)، المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ،189
- ابن خلكان 681هـ ، وفيات الأعيان ،338/5.
- الصفدي 764هـ ، الوافي بالوفيات ،285/6.

. السبكي (771هـ)، طبقات الشافعية الكبرى ،308/1
. ابن حجة الحموي (837هـ) ، ذيل ثمرات الأوراق ، 210/2.
. العاملي (1031هـ) ، الكشكول ، 118/1.
. ابن معصوم (1129هـ) ،أنوار الربيع ،178/4.
. الزبيدي (1205هـ) ،تاج العروس ، مادة (زرق) .
أما من المعاصرين فنذكر :
. كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ،67/2.
. د.عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ،90/3.
. جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ،267/2.
. احمد الهاشمي ،جواهر الأدب ، 371/2.
. د. محسن جمال الدين ، أدباء بغداديون في الأندلس ، ص24. 34.
. نعمان ماهر الكنعاني ، شعراء الواحدة ، ص 94.93.
. فاروق شوشة ،أحلى 20قصيدة حب في الشعر العربي ،ص163. 171.

(2) قال (الثعالبي) إن اسمه هو(أبو محمد بن زريق)، وسماه (ابن خلكان) بـ (محمد بن زريق) ، في حين أطلق عليه (ابن ماكولا) وكذلك (الزبيدي) صاحب (تاج العروس) لقب (الزريقي) .

(3) ينظر : لسان العرب ، مادة (زرق) . وقد ذكر صاحب (القاموس المحيط) في المادة اللغوية نفسها مايلي : ، زرّق (كسكر) : طائر صياد ... و(زريق) : طائر . كما أورد أسماء بعض من عرفوا بهذا اللقب فقال : وأما من أبوه زريق ، فعمار وعبد الله وعمر والمحمدان . الموصلي والبلدي . والحسن واسحاق ويحيى وعلي .

(4) ذكر الأستاذ (هلال ناجي) في مقالة له تعقيباً على ما كتبه الدكتور(محسن غياض) الخبر الذي أورده ابن النجار (643هـ) في كتابه (المستفاد من ذيل تاريخ بغداد) حيث قال : " علي بن زريق الكاتب البغدادي ، صاحب القصيدة المشهورة ، التي رواها عنه (أبو الهيجاء محمد بن عمران بن شاهين)" ، ثم ساق لابن زريق ثلاثة أبيات لم يذكرها أحد غيره :

وماسر قلبي مذ شطت بكم النوى أنيس ولا كأس ولا متصرف
وماذقت طعم الماء إلا وجدتـه كأن ليس بالماء الذي كنت أعرف
ولم أشهد اللذات إلا تكلفاً وأي سرور يقتضيه التكلف

ورأى هلال ناجي أن هذه الأبيات تأتلف مع القصيدة العينية في أسلوبها وغرضها. كما أورد للشاعر بعض ماعثر عليه من شعره كقصيدته في رثاء ديك !،وبعض الأبيات التي نسبت إليه ، وأشار إلى وجود أرجو له في الأخلاق ، ما تزال مخطوطة ، وهو الأمر الذي يبطل كونه من شعراء الواحدة (ينظر : هلال ناجي ، أضواء حول ابن زريق البغدادي .. بين الحقيقة والخيال ، مجلة العرب ، السنة 37، ص476 .492) .

(5) ذكر (ابن بشكوال) في كتابه (الصلة) أن (مكي بن أبي طالب .437هـ) صاحب كتاب (مشكل (6) أسقط د. (محسن غياض ، ص742) مسألة ذهابه إلى الأندلس وموته فيها ، فعنده أن " لا علاقة لابن زريق بهذه القصة ، ولا رابطة تربطه ببطلها غير كونه أعجب بالقصيدة فكتبها واستصحبها معه في غربته ، ثم وجدت في متاعه بعد موته ".

(7) وردت (لكن) في حالات أخرى مهملة كونها ساكنة الآخر: (لَكِن لَيسَ يَسمَعُهُ ، لَكِن أَرَقِّعُه)

(8) حتى حين ينقل الشاعر الحديث إلى غير ذاته فإن الهيمنة تبقى لضمير الغائب ، سواء أكان (هو) أم (هم) كما في الأبيات الآتية :

. وَما مُجاهَدَةُ الإِنسانِ تَوصِلُهُ رِزقاً وَلا دَعَةُ الإِنسانِ ... تَقطَعُهُ
. قَد وَزَّعَ اللَهُ بَينَ الخَلقِ رِزقَهُمُ لَم يَخلُقِ اللَهُ مِن خَلقٍ يُضَيِّعُهُ
. لَكِنَّهُم كُلِّفُوا حِرصاً فَلَستَ تـرى مُستَرزِقاً وَسوى الغاياتِ تُقنُعُهُ
. وَالحِرصُ في الرِزقِ وَالأَرزاقِ قَد قُسِمَت بَغيُ أَلَا إِنَّ بَغيَ المَرءِ يَصرَعُهُ
. وَالدهرُ يُعطِي الفَتى مِن حَيثُ يَمنَعُه إِرثاً وَيَمنَعُهُ مِن حَيثِ يُطمِعُهُ

(9) وهي : (اللام) و(الراء) و(النون) و(الباء) و(الميم) و(الفاء) ، وعند الخليل فإنها سميت كذلك " لأن الذلاقة في النطق إنما هي بطرف أسلة اللسان والشفتين ، وهما مدرج هذه الأحرف " (العين ،52/2) وذكر ابن جني أنها سميت بذلك " لأنه يعتمد عليها بذلق اللسان ، وهو صدره وطرفه" (سر الصناعة ،74/1) . وعدّ (إبراهيم أنيس) فإن هذه الحروف هي الأكثر شيوعاً في كلام العرب (الأصوات اللغوية، ص110) .

(10) ينظر: د. حسام النعيمي ، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ،ص313. وينظر مصدره .

(11) ينظر :المصدر نفسه ،ص298. وينظر مصدره.

(12) ينظر : المصدر نفسه .

(13) المصدر نفسه ،ص315 .

(14) المصدر نفسه .

(15) حيث الفتحة نصف صوت الألف ، والضمة نصف صوت الواو . ومثلهما فإن الكسرة نصف صوت الياء.

(16) ينظر : النعيمي ، ص315 .
(17) د. عزالدين اسماعيل ، التفسير النفسي للأدب، ص77.
(18) ينظر: د.علي حداد ،عن البيت الأول وأبوته . المنهاجية الإيقاعية لتأسيس الشعرية العربية ،ص 143 .
(19) الخبن : زحاف عروضي يتمثل في حذف الثاني السكن من التفعيلة ، فتستحيل (فاعلن) إلى (فعلن) .
(20) كالذي ورد على هذا الوزن من شعر الخنساء وجرير وعباس بن الأحنف والمتنبي ، وسواهم كثير
(21) جاءت حروف القافية في هذه القصيدة كما يلي : الروي : (العين) ، الوصل : (الهاء) ،الخروج: وهو حرف المد (الواو) المتولد من اشباع حركة الهاء (الضمة) .
(22) بلغت أبيات القصيدة عند الصفدي في (الوافي بالوفيات ،285/6) ، وابن حجة الحموي في (ذيل ثمرات الأوراق ،210/2) أربعين بيتاً ، في حين ذكرها السبكي (طبقات الشافعية الكبرى ،1 / 308) في ثمانية وثلاثين بيتاً. أما عند كثير من الباحثين المعاصرين فقد وردت في تسعة وثلاثين بيتاً ، وعند تقصينا لما ورد منها في تلك الدراسات فقد بلغت عندنا الأربعين بيتاً ، وهو ما اعتمدناه في هذه القراءة.
(23) أبو نواس ، الديوان ، ص55.

المصادر والمراجع :

*اسماعيل ، د. عز الدين :
. التفسير النفسي للأدب ، دار العودة . دار الثقافة ، بيروت1963م.
*أنيس ، إبراهيم :
. الأصوات اللغوية ، مكتبة نهضة مصر ،د. ت.
*ابن بشكوال ،أبو القاسم خلف بن عبد الملك :
. الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائها ، تحقيق عزة العطار الحسيني، مكتبة الخانجي ، القاهرة 1955م .
*الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد :
. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1956م .
*حداد ،د. علي :
. عن البيت الأول وأبوته . المنهاجية الإيقاعية لتأسيس الشعرية العربية (بحث)، مجلة التراث العلمي العربي ، تصدر عن مركز إحياء التراث العلمي العربي . جامعة بغداد، العدد الأول 2011م
*سيبويه ، أبو بشر عمرو :
. كتاب سيبويه، تحقيق محمد عبد السلام هارون، القاهرة 1975م.
*شوشة ، فاروق :
. أحلى 20 قصيدة حب ، مكتبة مدبولي ، القاهرة 1979م .
*غياض ، د. محسن :
. ابن زريق البغدادي .. بين الحقيقة والخيال، مجلة العرب ، السنة 33 ، الرياض1998م .
*الفراهيدي ، الخليل بن أحمد :
. العين ، تحقيق : د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار الحرية للطباعة ، بغداد1984م
* الفيروز أبادي، أبو إسحاق إبراهيم بن علي:
. القاموس المحيط ، المكتبة التجارية ، بيروت 1938م .
*الكنعاني ، نعمان ماهر :
. شعراء الواحدة ، مكتبة النقاء ، بغداد1985م .
*ابن منظور ، محمد ابن المكرم :
. لسان العرب ، دار صادر ، بيروت 1955م .
*ناجي ،هلال :
. حول ابن زريق البغدادي .. بين الحقيقة والخيال ، مجلة العرب ، السنة 37 ، الرياض 1999م.
*النعيمي ، د. حسام :
. الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، دار الحرية للطباعة والنشر ،بغداد 1980م .
*أبو نواس ، الحسن بن هاني:
. ديوان أبي نواس ، شرح وتحقيق محمد أنيس مهرات ، دار القدس للنشر والتوزيع، القاهرة 2014م